**انعكاسات الثورات على البلاد.**

**أسباب فشل الثورات:**

ما جمع هذه الثورات هو الجهوية والمحدودية، بسبب روح العصبية التي كانت قوية، ما أفقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين بربروسا، الذين استغلوا الأمر بتغذية هذه الروح، وذلك بزرع التنافر والخلاف بين القبائل، وحافظوا بذلك على أمنهم ووجودهم، حتى نهاية القرن 18م. كما أن أغلبها لم تسع للإطاحة بحكم العثمانيين بالجزائر، خاصة منها ثورات القبائل، بل أملت في تحسين أوضاعها بمعاملة أحسن من طرف الحكام. ويمكن تعداد هذه الأسباب في:

1/ الاختلافات بين الطرق الصوفية التي قادت الثورات(التجانية ضد الدرقاوية/الرحمانية ضد الدرقاوية/القادرية (الشيخ محي الدين) ضد الدرقاوية).

2/ كانت الثورات عشوائية عفوية وغير منظمة.

3/ قمع الحكام(جيش إنكشاري منظم مقابل ثوار غير منظمين) الذي ألحق أضرارا كبيرة بالثوار، وجعل الأنصار يتفرقون عنها مخافة القتل والتنكيل ضد قبائلهم.

4/ سياسة فرق تسد.

5/ سياسة المداهنة ومحاولة التقرب لبعض الأسر الإقطاعية والمرابطية المتنفذة بواسطة المصاهرة، مثل الباي بوشلاغم(1686م-1737م) الذي صاهر عددا من العائلات الإقطاعية في الغرب، وزواج أحمد القلي باي قسنطينة من أسرة بوعكاز شيخ العرب. كما أغدق الحكام على هذه العائلات الإقطاعية بالأموال والهدايا والهبات والامتيازات مقابل أن تحافظ على الأمن وتوطيد النفوذ العثماني في مناطقها.(عائلة المقراني وقفت في وجه ابن الأحرش).

6/ قمع الحكام للثورات قبل انتشارها، خاصة أن أغلب الثورات اعتمدت على التعبئة الروحية، حيث كانت تخمد بمجرد مقتل زعيمها.

**انعكاسات (نتائج) الثورات على البلاد.**

**اقتصاديا:**

أدت الثورات وما تبعها من إجراءات انتقامية من جانب الحكام إلى اضطراب الحياة الاقتصادية وتدهورها. فالتجارة الداخلية ركدت بسبب عدم استتباب الأمن، وكثرة قطاع الطرق واللصوصية. أما الفلاحة فقد تضررت كثيرا، ما أدى لانتشار المجاعة، كما ظهر جليا زمن ثورة درقاوة، فاختفت المواد الغذائية من الأسواق، وارتفعت أسعار المواد المتوفرة، بسبب الجفاف والمجاعة والجراد، ما دفع بالحكومة لاستيراد الحبوب بعد أن كانت تصدِرها. وقد كانت نتيجة مقتل عثمان باي بوادي الزهور سنة 1804م، إتلاف خزائنه وكل ما احتوت عليه محلته من أرزاق ومال...، وهذا أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت الباي، وتشتيت أهل محلته. وقام أهل الأعراش على بعضهم البعض بالنهب والفساد، فانعدمت الحراثة في تلك السنة أيضا في جهات كثيرة، وانفقدت حبوب الزرع بقيام الهول، وعزَ إخراجها، وقل من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات.

**سياسيا:**

رغم عشوائية الثورات وانعدام التنسيق بينها، إلا أنها تطلبت مجهودا عسكريا كبيرا لإخمادها. ووصل الأمر لحد فقدان الحكام السيطرة على الأمن في مدينة الجزائر وضواحيها، فأصبح العثمانيون لا يبتعدون عن مراكز وجودهم إلا برفقة الجنود لحمايتهم.

وكان من نتائج ثورة درقاوة، مثلا، هجرة القبائل إلى المغرب الأقصى فرارا من استبداد حكام الجزائر، والسياسة الضريبية وفرض الغرامات التي مورست على القبائل(بني عامر، سكان مدينة تلمسان) التي كان لها ضلع في الثورات انتقاما من الحكام .

كما تزعزع النفوذ العثماني وضعُف، ولم يعرف الاستقرار والهدوء حتى سنة 1830م تاريخ سقوطه، لأن هذه الثورات قوَت من روح الاستقلال، فكثر تمرد القبائل على الحكام، وتطاولت على عمالهم، ورفضت دفع الضرائب بعد أن سقطت هيبة الحكومة وقوتها في نظر الرعية. ولم يقتصر الأمر على قبائل الرعية فقط، بل تعداها إلى حلفاء العثمانيين القدماء من القبائل المخزنية والأسر الإقطاعية والمشيخات.

كما مهدت هذه الثورات لسقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين، بدون مقاومة تُذكر، وذلك لفقدان الثقة بين الحكام والجزائريين، وعمق روح العداء والتنافر بين الطرفين بلغ إحجام السكان عن إنقاذ الأقلية الحاكمة من مصير مشؤوم.

**انعكاسات ثورة درقاوة:**

بعد خروج الإسبان من وهران لم يعد لوجود العثمانيين مبررا، فاستيقظت الأفكار الاستقلالية، ولمقاومتها لزم الاعتماد على الانقسامات، وعلى المرابطين.

لكن حدة الثورات المتعددة، في نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م كانت سببا في إنهاك القوى الحربية للعثمانيين وفي إضعاف الجيش، فلم تعد له تلك الصولة التي كانت في عهد عثمان باشا وصالح باي ومحمد الكبير. والحروب المتواصلة كانت بداية انتكاس مُحزن للقوى الجزائرية التي أخذت تتراجع حتى أقبلت القوات الفرنسية، فلم يستطع أن يقف أمامها رغم الاستماتة.

وفشل ثورة درقاوة لم يكن كاملا، لأنها قطعت شعرة معاوية بين الحاكم والمحكومين، وإن تمكن الحاكم من سحقها في النهاية، فتفسير فشل حركة ابن الأحرش بالشرق الجزائري هو أن العشائر هناك كانت تدين بالولاء لشيوخها الذين كانوا يستمدون نفوذهم من رجال البايلك مقابل امتيازات.وأغلب الريف كان ينتمي للرحمانية المهادنة للحكام والمتعاملة معهم، كذلك منافسة الرحمانية لابن الأحرش بالشرق، إذ لم ينظم إليه من المرابطين سوى من كان ناقما على الباي عثمان بن محمد الكبير، مثل سيدي محمد بن عبد الله الزبوشي، وابن بغريش، وابن بركات. هذا خلاف الغرب الجزائري الذي تغلغلت فيه الدرقاوية وكسبت قبائل الرعية، وأصبحت القوة الرئيسية المعادية للعثمانيين.

كما أن سلاطين المغرب الأقصى تخلوا في القرنين 18م و19م عن المواجهة المباشرة مع حكام الجزائر، وهو تغيير في أسلوب تعاملهم معهم، وأحدث شكلا مغايرا تمثل في تدعيم الطرقيين، وتحريضهم على إثارة القلاقل في الجزائر، ونجحت إلى حد ما هذه السياسة في زعزعة الحكم بالجزائر بعد الثورات التي اندلعت في أرجاء الجزائر في مطلع 19م.

صحيح أن الدرقاوية لقيت تشجيعا من مولاي سليمان الذي قرَب رجال الدين والشرفاء، فكان انتشار أتباع الطرق الصوفية بالمغرب الأقصى وغرب الجزائر بمثابة حصن يحمي سياسة السلاطين العلويين من خطر العثمانيين بالجزائر،لكن سلطان المغرب الأقصى لم يكن في وضع يسمح له بمحاربة العثمانيين، فآثر التخلي عن مشروعه، ونصح الشيخ العربي الدرقاوي بصرف النظر. واضطر هذا للتنصل من موقف تابعه، مقدم تلمسان(ابن الشريف)، على اختلاف الروايات. وبعد استعادة الباي المقلش للمدينة في معركة وادي الأحد، ومقتل 600 درقاوي، أعاد سلطان المغرب الأقصى الوفد التلمساني الذي جاءه لبيعته مع هدايا، وبعث معه مبعوثا خاصا، حمَله هدايا للباي، وقبلها هذا. وهكذا تصالح سكان تلمسان من الحضر مع الحامية العثمانية من الكراغلة.

لقد نجح العثمانيون في سحق هذه الثورة بعد جهد كبير، وأصيبت تلمسان بأضرار كبيرة، وهجر قسم كبير من أهلها الجزائر إلى المغرب الأقصى بسبب القحط، الذي زاد في معاناة الناس، وحين طلب باي وهران من مولاي سليمان إعادتهم رفضوا العودةمجيبين:"...نذهب إلى بلاد النصارى ولا نجاور الترك، فنجمع علينا الجوع والقتل..."

إن موقف مولاي سليمان وتحريض باي تونس لابن الأحرش، محاولة لإلحاق أضرار جسيمة بالجزائر، لكن محاولة زعزعة النظام السياسي القائم ما كانت لتفلح إلا إذا وجدت صدى متجاوبا معها من الداخل، بعبارة أخرى: الجزائريون كانوا مرهقين لحد استعدادهم للثورة ضد الطغمة العسكرية التي، بعد أن فشلت في مهمتها، راحت تقوم بدور الدركي في الداخل، مما أضاف لهذا التذمر الشعبي معارضة المجموعات الدينية والعلمية من زوايا وشيوخ وطلاب، وحتى قضاة ومفتيين.

ويُعتبر تحول الدرقاوية من التصوف إلى السياسة ضررا لها، لأن الحكومتين الجزائرية والمغربية في نهاية الأمر قد تفاهمتا على كبح جماحها، وقد عادى مولاي سليمان العربي الدرقاوي لتأييده الثورات ضده. صحيح أنه لم يكن هو الروح القائدة ولكن استغله آخرون، وسُجن إلى أن أطلقه المولى عبد الرحمان.

ومن نتائجها كذلك تخريب شامل للحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتقتيل أعداد مهولة من الجزائريين، مع استنفاذ الطاقات الحربية.

ولم تنته في الواقع ثورة درقاوة بالقضاء على ابن الشريف وابن الأحرش، بل انتقلت العدوى وصار البايات يحسبون كل صيحة عليهم ثورة، فتتبعوا آثار أصحاب النفوذ الديني فتمردت الرعية، وصار كثير من المنتسبين لشيوخ الدين يحرضونها على العصيان.

ويمكن القول أن ثورة درقاوة كانت من أسباب انهيار دولة العثمانيين بالجزائر، فقد فقدت الدولة بسببها ثقة القبائل الموالية لها حتى ضعُفت عن مقاومة الفرنسيين. ومات بسببها عشرات الآلاف، وكثير من شيوخ القبائل والنخبة والعلماء، وعدة بايات منهم من قتل، ومنهم من عزل، ومنهم من سجن.

كما أضعفت هذه الثورة نفوذ البايلك بالأرياف، وأقنعت سكان الريف بإمكانية الثورة على سلطة البايلك، ورفض دفع الضرائب والمطالب المخزنية، وعدم الرضوخ للأحكام الجائرة. كما أن انتشار حركة التمرد في القبائل الجبلية عرّض المدن للخطر(المدية، مليانة، شلف...)، وتسبب في اضطراب الاقتصاد بإهمال الفلاحة، واختفاء الأقوات، ما أدى لحدوث مجاعة سنة 1804م.

إن ثورة درقاوة هي ثورة شعبية وانتفاضة فلاحية، نتيجة السياسة المالية والتصرفات الجائرة لبعض الحكام، وعبَرت عن مدى بؤس وتعاسة الفلاحين، وعن تمسُك سكان الأرياف بالإسلام الصوفي المتقشف الزاهد، الذي تدعو إليه الدرقاوية. وهدفت كحركة شعبية لوضع حد لاستنزاف خيرات الريف، وتسخير سكانه لفائدة الامتيازات الأجنبية، والاحتكارات اليهودية الهادفة لتصدير أكبر كمية من الحبوب والمواد الأولية بأسعار زهيدة، بينما المجاعة والأمراض تعصف بالجزائريين.

**النتيجة النهائية:**

إن عدم الثقة غدت الميزة الرئيسية في العلاقات بين الحكام والمتصوفة، التي كانت قائمة على التفاهموالاحترام المتبادل. وتردي هذه العلاقات، بين ممثلي الحكومة والمجموعات الدينية، قضى على العنصر الرئيسي، الذي ميَز السلوك في المجتمع الجزائري منذ قرون، وهو عنصر الاعتدال. فدور المرابطين ورجال الثقافة بصفة عامة، وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية تجلى في جميع المستويات: اقتصادية، اجتماعية، عسكرية،.. فبدون هذا التفاهم كان ينهار صرح الدولة. فالزوايا لا يقتصر دورها على الانتماء لناحية أو منطقة معينة، ولكن تهدف إلى ما وراء ذلك، والعلاقات التي نسجها الإخوان تتجاوز حدود القبيلة أو لون البشرة أو اللغة أو الحدود.

إن الثورات ضد العثمانيين في شرق البلاد ثم في غربها ثم في الوسط، كانت بتدبير بعض كبار أو صغار رجال الطرق الصوفية، وهي مؤشر كبير بيَن أن الوعي بتداعى نظام الحكم، وضرورة تغييره قد ساد جماعات واسعة، والأخطر في الأمر على الحكام، أن هذا الطموح إلى التغيير قد وجد من يعطيه صورة ملموسة، وأن المرشحين للحكم بدل النظام القائم، هم فئة قادرة على التأثير على عواطف الجماهير،وتجنيدها في العمل من أجل مشروع جديد، وهم فئة رجال الدين.

وكنتيجة لما سبق نشير أن خسارة الطرق الصوفية بالنسبة للعثمانيين في الجزائر خسارة لا تُعوض، بحيث تركوهم وشأنهم ليصفوا حساباتهم مع الفرنسيين، وعندما كان هؤلاء على وشك الاستيلاء على مدينة الجزائر لم يُسرع الطرقيون كعادتهم للمشاركة في المعركة بكل ثقلهم، كما أن جل القبائل كانت غائبة عن ساحة القتال.